

الدرس الخامسة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم على آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " رواه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث الخامس عشر من الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، وهو حديث عظيم من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام يرويه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " .

وهذا الحديث يتكون من ثلاث جمل شرطية ؛ يُذكر في كل جملة الشرط وجوابه ، وكل جملة من هذه الجمل مبدوءة بقوله عليه الصلاة والسلام " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " وهذا مقام ترغيب وحث على هذه الأعمال الجليلة وبيان فضلها وعظيم ثوابها عند الله تبارك وتعالى ، وبيان أنها من مقتضيات الإيمان وموجباته .

وذكر النبي عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث ثلاث مرّات " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " لأن الله عز وجل هو المقصود بالعبادة والمقصود بالتقرب ، فجميع القربات تُفعل تقرباً إليه وطلباً لمرضاته ، وقياماً بما أمر به سبحانه وتعالى .

وذكر اليوم الآخر لأنه يوم الجزاء والحساب ، وأن الناس سيقفون بين يدي الله تبارك وتعالى وسيحاسبهم وهو جل وعلا الديان ، والعباد سيُعرضون يوم القيامة ، وتُعرض أعمالهم وهي محصاة عليهم ؛ ولهذا صَدَّرَ النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بقوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " لأن ما سيُذكر هو من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر .

وبناءً عليه فإن فعل المسلم لهذه الخصال المذكورة في الحديث وغيرها من خصال البر والخير يفعلها إيماناً بالله جل وعلا وإيماناً باليوم الآخر الذي هو يوم الثواب والجزاء ؛ وبهذه الصفة يكون العمل مشكوراً عند الله كما في سورة الإسراء ؛ قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ .

فحفظ اللسان وإكرام الجار وإكرام الضيف وغير ذلك من أبواب البر والإحسان إن فعلها المسلم متقرباً بها إلى الله جل وعلا طالباً ثوابه جل وعلا وجزاءه ؛ فإن سعيه هذا يكون مشكوراً عند الله مرضياً عنده سبحانه وتعالى ، أما إذا كان يفعل ذلك للدنيا ليس إلا ، لا يرجو بعمله ثواب الآخرة ؛ فإن سعيه لا يكون مشكوراً عند الله ، ولا يكون عمله في عداد الأعمال الصالحة التي يتاب عليها يوم القيامة ؛

ولهذا بدأ عليه الصلاة والسلام هذا الحديث مكرراً ذلك في كل جملة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " وهذا - كما قدمت - فيه حفز للنفوس المؤمنة وترغيب للإقبال على هذه الخصال العظيمة تديناً وتقرباً وطلباً لثواب الله عز وجل .

ذكر عليه الصلاة والسلام أول ما ذكر في هذا الحديث ما يتعلق بصيانة اللسان وحفظه فقال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " وهذا فيه حفظ اللسان وصيانته وأن لا يتكلم المرء بلسانه إلا بكلام فيه خير ، أما الكلام الذي لا خير فيه أو الكلام الذي هو شر على صاحبه أو على غيره ؛ فهذا لا يجوز له أن يتكلم به ، بل يجب أن يصون لسانه عنه ، واللسان خطير غاية الخطورة ، وأكثر من يدخل النار يوم القيامة يدخلها بسبب اللسان ؛ كما في حديث معاذ عندما أخذ النبي عليه الصلاة والسلام بلسانه مخبراً معاذ بملاك الأمر ؛ أخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه وقال " كف عليك هذا " قال معاذ : أو إنا مؤخذون بما نتكلم به ؟ قال " ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم " فاللسان خطير غاية الخطورة قال عمر رضي الله عنه : " من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به " .

ومن يرخي للسانه الزمام ويطلق له العنان يتكلم متى شاء بما شاء بدون قيد أو ضابط يهلك نفسه ويحني عليها جناية بالغة ؛ ولهذا كما قال ابن مسعود رضي الله عنه " ليس هناك شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان " ، فيحتاج الإنسان إلى أن يحبس لسانه وأن يمنعه وأن لا يتركه يتكلم إلا بالكلام الذي يُحمد والذي هو خير ، أما الكلام الذي هو على الإنسان لا له فمن الجناية على النفس أن يخوض الإنسان بلسانه بمثل هذا الكلام ، وأحياناً ربما تكون كلمة واحدة ، وربما لا يلقي لها صاحبها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن " الرجل يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً " كلمة ؛ فكيف بالكلمات الكثيرات ؟! وكيف بمن لسانه طليق في كل شيء بدون مبالاة وبدون حزم ولا زم بزمام الشرع وضوابط الشريعة ؟!! هذا يحني على نفسه جناية بالغة ، ولهذا جاء التوجيه النبوي في هذا الحديث العظيم المبارك بقوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " واللام هنا للأمر ، وهذا يعني أن الكلمة يجب أن توزن قبل أن تخرج ، والكلمة إذا لم تخرج منك ملكتها ، فإذا خرجت ملكتك وأصبحت متحملاً تبعتها ، أما إذا لم تخرج فأنت تملك الكلمة قال تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ فالكلمة إذا تلفظ بها الإنسان وخرجت منه دخلت في عداد عمله ؛ إن كانت خيراً فهي في عداد عمله الصالح ، وإن كانت شراً فهي في عداد عمله السيئ وفي موازين سيئاته ، وكلام الإنسان يُكتب عليه أو له ؛ فالكلام إما لك أو عليك ؛ الكلام الذي يخرج من الإنسان إما للإنسان أو على الإنسان

ولهذا قال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً . وهذا هو الذي للإنسان . أو ليصمت " أي ليكف عن الكلام مطلقاً ، لأنه إن تكلم في غير الخير صار الكلام عليه .

ومن خطورة اللسان البالغة أن اللسان مؤثرٌ في البدن كله ؛ اللسان يؤثر في البصر ، يؤثر في السمع ، يؤثر في اليد ، في القدم . وبدايات الجرائم والتعديات والمظالم بدايتها اللسان ، وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال " إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا " فالجوارح تتبع اللسان إن حفظ الإنسان لسانه فإن الجوارح تتأدب وتمضي على الأدب والسداد والاستقامة ، وإذا لم يحفظ لسانه فالجوارح تنفلت تبعاً للسان ؛ ولهذا كل يوم يصبح فيه العبد تكفر جوارحه لسانه قائلةً

اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا ؛ فاللسان إذا كان على السداد صلحت الأعمال وإن كان على غير السداد فسدت الأعمال ؛ وهذا المعنى قد يُستفاد من قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقلوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ فإذا حافظ المرء على القول السديد والكلام الطيب المفيد فالجوارح تتبعه لذلك ؛ إذا كان لسان الإنسان محفوظاً بالذكر والثناء على الله وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أبواب الخير و البر ؛ فالجوارح تتبعه على ذلك . أما إذا كان اللسان والعياذ بالله فاحشاً بذيقاً سليطاً سيئاً ؛ فالجوارح ستكون معه على الفحش والبذاء والإيذاء والعدوان ونحو ذلك .

قوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " .. هذا فيه توجيه إلى وزن الكلام قبل أن يُخرج " كما جاء في كلام الشافعي رحمه الله " بحيث يتأمل المرء الكلمة التي ستخرج منه ؛ إن كانت خيراً فتح لها المجال للخروج وتكلم ، وإن كانت بخلاف ذلك لم يسمح لها ويمنع لسانه من الكلام بها ؛ فيزن كلامه قبل أن يخرج ؛ وهذا داخل في كلام عمر رضي الله عنه " حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنها قبل أن توزن " ؛ فيزن الكلمة قبل أن تكون في عداد عمله ؛ فإذا كانت كلمة متزنة طيبة سديدة مفيدة أخرجها وإلا جعلها حبيسة لا تخرج ؛ لأنها إذا خرجت أضرت به .

وأما مادام الكلام حبيس الصدر يتجلجل في صدر الإنسان ولا يخرج فلا يحاسب عليه ؛ " إن الله عفى عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم وتفعّل " ؛ فالكلام الذي يجول في صدر الإنسان ولو كان كلاماً سيئاً إذا كان لا يطبقه ولا ينطق به لا يحاسب عليه وعفى الله عنه ، والإنسان أحياناً يجول في صدره أشياء وكلمات ؛ فإذا منع نفسه من فعل ما يجول في نفسه من شر لم يحاسب عليه ؛ وهذا من الدواعي والدوافع إلى وزن الكلام وضبطه قبل أن يخرج ؛ لأنه ربما يكون هذا الكلام الذي يخرج الإنسان كلاماً ضاراً يترتب عليه عواقب وخيمة وأضرار ؛ قد يكون وقت الكلمة غير مبال بخطورة الكلمة فوجب عليه أن يكون بهذه الصفة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " أي يمتنع عن الكلام .

وجاء في حديث آخر أنه قال " من صمت نجا " وليس معنى " من صمت " أن يتعبد لله بالامتناع عن الكلام مطلقاً ويبقى الإنسان صامتاً أو يجعل صماته قرينة فلا يتكلم ليس هذا

المراد ولكن المراد أن الخيار كما في الحديث ؛ إما أن يقول خيراً أو يلزم الصمت أما الخيار الثالث يجتبه وهو أ يتكلم بشيء فيه ضرر عليه أو على الآخرين .

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام في الجملة الثانية إكرام الجار قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره .. والجار له حق عظيم في الشريعة ، ولا زال نبينا عليه الصلاة والسلام يوصي بالجار حتى قال " لازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " أي سيجعل له نصيباً من الميراث . وقوله " لازال جبريل يوصيني بالجار " هذا يفيد أن الوصية بالجار جاءت عليه الصلاة والسلام متكررة ، وجاءه بها جبريل مرات يوصيه بالجار .

فالجار له مكانته وله حقه وواجب على جاره إكرامه والوفاء بحقوقه والحذر أشد الحذر من الاعتداء عليه أو أن يطاله بأذى فعلي أو قولي .

وقوله عليه الصلاة والسلام " فليكرم جاره " .. ذكر الإكرام ولم يذكر نوعاً معيناً من الإكرام ؛ ليشمل كل إكرام قولي أو فعلي ، فلم يقيد بنوع من الإكرام القولي أو الفعلي بأنواعه ؛ بل أطلقه عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا هو المطلوب ، المطلوب أن يجتهد الإنسان في إكرام جاره بما استطاع من أنواع الإكرام بالقول وأنواع الإكرام بالفعل .

وإذا كان الجار قريباً مسلماً زادت الحقوق - جيرة وقربة وإسلام - .

وإذا كان الجار مسلماً فله حق الجوار والإسلام .

وإذا كان كافراً فله حق الجوار ؛ لأن إكرام الجار والإحسان إليه لا يختص بالمسلم ؛ ولهذا روى الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ذبح شاة وقال أهديتم جارنا فلان ؟ قالوا : اليهودي أصلحك الله ؟ قال نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " وسنده جيد .

ولهذا قال أهل العلم - وهذا جاء في حديث يُرفع وفي سنده كلام - الجيران ثلاثة جار مسلم قريب وجار مسلم وجار ليس بمسلم الأول له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام والثاني له حقان حق الجوار والإسلام والثالث له حق واحد وهو حق الجوار ، قد قال الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بالكافر ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ والنبي عليه الصلاة والسلام عاد الغلام النصراني في مرضه ودعاه إلى الإسلام فأجاب ومات في مرضه ذلك ومات مسلماً

فالشاهد أن الجار له حق بأن يحسن إليه جاره ويتلطف معه ، وأن يجتهد في الوفاء بحقوقه وأن يحسن القول معه وإليه ، أن يحسن الفعل وأن يحذر أشد الحذر من إيذاء الجار ؛ قال عليه الصلاة والسلام " والله لا يؤمن من لا يؤمن جاره بوائقه " لأن إيذاء الجار يتنافى مع الإيمان الواجب ؛ ولهذا جاء عنه عليه الصلاة والسلام نفي الإيمان في حق من لا يأمن جاره بوائقه ؛ يعني لا يأمن جاره من أذية منه أو عدوان ؛ فيحذر أشد الحذر من أن يحصل أي أذى منه إلى جاره ، يتعد عن ذلك ؛ لأن الجار له في الإسلام حق عظيم ؛ ولهذا العدوان على الجار جريمة أكبر من العدوان على بعيد الدار ؛ لأن هذا فيه إهدار لحق عظيم جاءت به الشريعة وهو حق الجوار ، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر .. " فذكر عليه الصلاة والسلام منها الشرك بالله عز وجل " أن تشرك بالله وهو خلقك .. " ثم ذكر في تمام الحديث " وأن تزاني حليلة جارك " ؛ خصَّ الجار بالذكر لأن العدوان على عرض الجار فيه جنائية من أعظم الجنايات وأبلغها ؛ لأن المفترض في الجار أن يكون مساعداً ومعاوناً على الصيانة والحماية لا أن يكون هو سبب الشر والأذى والانتهاك ، ولقد كان بعض أهل الجاهلية يمتدح نفسه بحفظه لعرض جاره ؛ كما يقول أحد شعراء أهل الجاهلية :

وأغض طربي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

ولهذا صح عن النبي عليه الصلاة والسلام كما في الأدب المفرد وغيره أنه قال للصحابه يوماً - كما في حديث المقداد - " قال أخبروني عن الزنا قالوا حرام ، قال أخبروني عن الزنا قالوا حرام حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال عليه الصلاة والسلام " لمن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزني بحليلة جاره - أو بزوجة جاره - " وهذا فيه تفاوت الزنا باعتبارات ، الزنا كبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم لكن الزنا بحليلة الجار وقريبة الجار أعظم وأخطر ، ثم قال " أخبروني عن السرقة " قالوا حرام حرمه الله ورسوله ؛ قال عليه الصلاة والسلام " لمن يسرق الرجل من عشرة بيوت أيسر من أن يسرق من بيت جاره "

فالجار له حق عظيم ؛ يجب على الجار أن يكرم جاره ، وأن يحسن إلى جاره وأن يقوم بحقوق جاره ، وأقل ما يكون في هذا الباب أن يكف أذاه وشره عن جاره ؛ فلا يحصل منه تجاه جاره أي أذى لا قليل ولا كثير ، ويجتهد أيضاً في تربية أولاده وأبنائه على احترام الجار والقيام بحقوق الجار ، وحفظ عورة الجار ، وعدم التلصص عليه أو التجسس أو غير ذلك من الأعمال المشينة المنكرة ، وقد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام " وأن تأتي الناس الشيء الذي تحب أن يؤت إليك " ؛ فكن لجارك كما تحب أن يكون جارك لك ؛ فكما أنك تحب أن تُكرم وأن

يُحسن إليك من قبل الجيران وتحب أن لا تؤذى وأن لا يُساء إليك من قبل الجيران ؛ فكن كذلك لجارك ، وإذا كان جارك مؤذياً لا تقابل الأذى بالأذى ولا العدوان بالعدوان ولا الظلم بالظلم ؛ ولكن ادفع بالتي هي أحسن ، وأحسن إلى جارك ما استطعت لتكون بإذن الله تبارك وتعالى صاحب العاقبة الحميدة والمثال الطيب في دنياك وأخراك .

ثم قال عليه الصلاة والسلام في الجملة الثالثة إكرام الضيف " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " .. الضيف له حقه في الإسلام ، وله مكانته ، وله قراه ، وله الحق بحسن الضيافة وحسن التلقي وحسن الاستقبال والقيام بحق الضيف ؛ هذا مما جاءت الشريعة بالحث عليه والحض عليه .

والضيافة في اليوم الأول للضيف حقٌ خاص ، كما سيأتي معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام " اليوم الأول للضيف حقٌ خاص والثلاثة الأيام الأول أيام ضيافة ؛ يضيف الجار ويكرمه مبيتاً وطعاماً بما تيسر ، وما وراء ذلك فهو صدقة عليه ، أما في الأيام الثلاثة الأولى واليوم الأول ؛ هذا أمرٌ متأكد وواجب ، وقد قال أهل العلم أن الوجوب هنا مختص بالمناطق التي ليس فيها مساكن للاستئجار والاكتراء ، وليس فيها أماكن يباع فيها الطعام ؛ فيصل الضيف إلى القرية وليس فيها مسكن يسكن فيه وليس فيها محلات يشتري منها طعاماً ففي مثل الحال فالضيافة واجبة ، أما إذا كانت الأمور متيسرة والمساكن متهيئة وأماكن الطعام متيسرة ؛ فتكون مستحبة لا واجبة وإنما تكون واجبة حيث لا يتوفر المأوى ولا يتوفر المطعم والغذاء .

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح هذا الحديث :

[الأول: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر في هذه الأمور الثلاثة ؛ لأن الإيمان بالله هو الأساس في كل شيء يجب الإيمان به ، فإن أي شيء يجب الإيمان به تابع للإيمان بالله ، وأما الإيمان باليوم الآخر ففيه تذكير بالمعاد والجزاء على الأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر] .

الشرح..

تصدير الحديث بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالجمع بينهما :

- لأن الله جل وعلا هو المقصود المتقرب إليه بالأعمال والمطلوب رضاه بفعلها
- ولأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب ؛ فإذا قام العبد بأعمال البر والخير والإحسان ؛ وجد ثوابها يوم القيامة ، ومن قام بأعمال الشر وجد عقابها يوم القيامة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

[ثانياً : قوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ؛ هذه كلمة جامعة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم مقتضاها وجوب حفظ اللسان من الكلام إلا في خير ، قال النووي في شرح هذا الحديث : قال الشافعي رحمه الله تعالى " معنى الحديث إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ضرر أن فيه ضرراً وشك فيه أمسك " ، وقال الإمام الجليل أبو محمد بن أبي زيد إمام المالكية بالمغرب في زمنه " جميع آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ، وقوله صلى الله عليه وسلم للذي اختصر له الوصية " لا تغضب " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

ونقل النووي عن بعضهم أنه قال " لو كنتم تشترون الكاغد للحفظه لسكنتم عن كثير من الكلام]

الشرح..

قول النبي عليه الصلاة والسلام في الجملة الأولى من هذا الحديث العظيم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " هذه الكلمة فيها حفظ اللسان وصيانتها ، وأن الواجب على العبد قبل أن يتكلم أن يزن كلامه وأن يتأمل في كلمة الإمام الشافعي رحمه الله فإنها عظيمة في بيان معنى هذا الحديث . فقال الشافعي :

" إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ظهر أن فيه ضرراً وشك أمسك " . وهذه كلمة عظيمة جداً ؛ فكلام الإنسان الذي سيخرجه لا يخلو عندما يفكر فيه من ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن يتبين له أنه كلام نافع ، كلام طيب لا ضرر فيه فهذا لا حرج عليه أن يتكلم به .

الحالة الثانية : أن يعلم ويتبين له أن فيه ضرر ؛ فعليه أن يحجم عن هذا الكلام .

الحالة الثالثة : أن يشتبه الأمر عليه ويكون متردد - هل هذا الكلام ضار أم نافع . فهذا أيضاً عليه أن يحجم عنه .

وتأمل في كلام الشافعي " إن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم - هذي الحالة الأولى - ، وإن ظهر أن فيه ضرراً - هذي الحالة الثانية - ، أو شك - هذي الحالة الثالثة - " .

وهذا المعنى مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام " إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمورٌ مشتبّهات " فالحلال البيّن لا حرج فيه والكلام الطيب البيّن لا حرج عليك أن تقول ، والكلام الحرام البيّن لا يجوز للمسلم أن يتكلم فيه ، والكلام الذي يشتبه على الإنسان ويشك فيه قبل أن يتكلم - هل هو مفيد أم لا ، هل هو ضار أم لا - فيحصل عنده شك واشتباه ؛ فالواجب الإمساك . قال عليه الصلاة والسلام " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " .

فهذه كلمة عظيمة جداً عن الإمام الشافعي رحمه الله ينبغي أن تحفظ وأن يوزن الكلام قبل أن يخرج في ضوئها .

ثم هذا النقل الآخر عن الإمام الجليل أبي محمد بن أبي زيد القيرواني إمام المالكية بالمغرب في زمانه ، ويلقبه بعضهم بمالك الصغير ، كان إماماً فحلاً قوياً في العلم متمكناً ، وله كتاب أسماه " الرسالة " جعل بين يديه مقدمة في الاعتقاد ، مقدمة نفيسة جداً ونافعة ، واعتنى به أهل العلم وطلابه قديماً وحديثاً ، وهي مطبوعة مفردة بعنوان مقدمة ابن أبي زيد القيروان ، وأيضاً تُعرف بمقدمة الرسالة ، مقدمة في العقيدة نفيسة جداً لهذا الإمام .

وله كلمة هنا عظيمة في الأحاديث الجامعة للأخلاق والآداب ؛ يقول رحمه الله :

" جميع آداب الخير تنفر من أربعة أحاديث " جميع آداب الخير تنفر من أربعة أحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " لا تغضب " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

هذه الأحاديث الأربعة كلها من أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

هذه الكلمة كلمة عظيمة من إمام جليل ، أؤكد أن هذه الكلمة ينبغي علينا جميعاً أن نحفظها وأن نُعنى بها ؛ لأن الإمام ابن أبي زيد رحمه الله بهذا النظر الثاقب والتأمل الدقيق في السنة الماثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام في باب الآداب والأخلاق ؛ وجد بجميل تأمله وحسن نظره

أن أحاديث الآداب على كثرتها . ونعرف أن للإمام البخاري مجلداً كثيراً في الآداب . فالإمام بجميل نظره يقول أن أحاديث الآداب تجتمع في هذه الأربعة أحاديث ، والأحاديث الأخرى متفرعة عن هذه الأحاديث الأربعة ، والمعنى أنك إذا جمعت هذه الأحاديث وفهمتها وضبطتها واعتنيت بتطبيقها ؛ أتيت بمجامع الآداب ، وفعلاً بالتأمل الدقيق لهذه الأحاديث التي نص رحمه الله تعالى أنها جمعت الآداب وأن جميع أحاديث الآداب متفرعة عنها ؛ بالتأمل نجد فعلاً أن هذه الأحاديث جمعت الأدب المطلوب ، وأن الأدب المطلوب كله راجع إلى هذه الأحاديث الأربعة .

• الحديث الأول من هذه الأحاديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " وهذا فيه أن من جوامع الآداب وأساسيات الآداب صيانة اللسان وحفظه ، ومن كان عاجزاً عن صيانة لسانه وحفظه لن يكون يوماً من أهل الأدب ولا من أهل الأخلاق ؛ لأن من مقومات الأدب وعُمد الأدب التي يقوم عليها صيانة اللسان ، والذي لا يتمكن من صيانة لسانه لن يكون يوماً خلوفاً مؤدباً .

إذا قرأت في كتب الآداب ما يتعلق بأدب اللسان . وهي أبواب كثيرة في كتب الآداب . وجدت أنها راجعة إلى هذا الحديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " .

• الحديث الثاني : قوله عليه الصلاة والسلام " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " وهذا فيه أن من أساسيات الأدب حفظ الإنسان نفسه عن الفضول وعن أن يقحم الإنسان نفسه فيما لا يخصه ولا يعنيه ، والذي لديه فضول وتطلع للنظر في خصوصيات الآخرين ومرةً يسترق سمعاً ومرةً يسترق نظراً ؛ هذا لن يكون يوماً من أهل الأدب ؛ بل هو بهذه من أهل سوء الأدب وردئه ؛ ولهذا من أساسيات الأدب أن يطبق هذا الحديث " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " فمن أساس الأدب أن يتعد الإنسان عن الأمر الذي لا يعنيه ، لا يكون فضولياً ولا يدخل في شؤون الآخرين مستترا لهم بسمعه أو متتبعا لهم بنظره أو متلصصا أو متجسسا أو غير ذلك من الأعمال ؛ هذا كله من سوء الأدب .

• الحديث الثالث : قوله عليه الصلاة والسلام الذي اختصر له الوصية " لا تغضب " ، وسيأتي في الحديث القادمة شرح موسع لهذا الحديث " لا تغضب " ، وهذا الحديث يُعد وصية جامعة ، بل بعض الصحابة قال " تأملت في هذا الحديث فوجدته جماع الخير " ؛ لأن الغضب أساس كل

شر قولي وفعلي ؛ ولهذا من أساسيات الأدب أن لا يغضب الإنسان ، وأن يملك نفسه عند الغضب ، ومن كان لا يملك نفسه عند الغضب لن يستطيع أن يكون مهذباً مخلوقاً ، وقد قيل في ذم الغضب " أوله جنون وآخره ندم " ؛ فالإنسان الذي يتحرك بانفعالات الغضب التي طرت عليه بأقوال أو أفعال هذا لن يكون يوماً مؤدباً بل يخرج منه من الأقوال والأفعال ما يتنافى مع الأدب ؛ ولهذا سيأتي أن الواجب على الإنسان إذا غضب أن يسكت . لا يتكلم نهائياً . وإذا كان معه من أغضبه لا يبقى مواجهاً له ؛ بل يجلس ؛ فإن سكن غضبه وإلا فليضطجع لأن انسياق الإنسان مع تفاعلاته بسبب الغضب يخرج عن حيز الأدب ونطاق الأخلاق القويمة السليمة ؛ ولهذا قوله " تغضب " وصية جامعة في باب الآداب والأخلاق ، ومن كان الغضب يسيطر عليه في أقواله وأفعاله لن يكون يوماً من أهل الآداب والأخلاق .

• والحديث الرابع : قوله عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ؛ وهذا فيه إصلاح القلب وصيانة النفس وسلامة الصدر ؛ وهذا من أساسيات الأدب ؛ بمعنى أن يكون قلب الإنسان سليماً تجاه إخوانه المسلمين ، ليس فيه غل ولا حقد ولا سخائم ولا حسد ولا نحو ذلك من الأمراض ؛ لأن هذه الأمراض إذا وجدت في القلوب أفسدت الأخلاق وجعلت في الخلق رعونة وغلظة وغضاضة وشدة ، وتكون هي المتحكمة في خلق الإنسان والمسيطرة عليه ؛ ولهذا من أساسيات الأخلاق سلامة الصدر ، يكون سالم الصدر للمسلمين أما الإنسان الذي في صدره على إخوانه غل أو حقد أو حسد أو نحو ذلك ؛ هذا خرج بالذي هو في صدره عن حيز الخلق والأدب ؛ لأن من أساسيات الأدب وركائزه سلامة الصدر .

فتحصل من هذه الأحاديث الأربعة أن الأدب قوامه على أربعة أركان :

الأول : صيانة اللسان .

الثاني : البعد عن الفضول .

الثالث : عدم السير مع انفعالات النفس و رعونتها .

الرابع : سلامة القلب وسلامة الصدر .

ونقل النووي رحمه الله تعالى كلمة عن بعض أهل العلم قال " لو كنتم تشترون الكاغد " : يعني القرطاس .

" للحفظة " .. يعني للملائكة الذي يكتبون ما تقولون وما تتكلمون به ؛ فلو كنتم مكلفين بشراء الكاغد لهم بحيث أن الأوراق التي تمتلئ مع الملك يُطلب من الشخص الذي وُكل به هذا الملك أن يُحضر له أوراقاً جديدة .

" لسكنتم عن كثير من الكلام " .. وهذا فيه تنبيه إلى أن الإنسان الذي يُطلق لسانه الزمام سيفاجئ أن لسانه خرج منه كلام كثير ، وربما أن هذا الكلام الكثير عليه .

حقيقة الإنسان قد يُفاجئ يوماً أنه خرج منه كلام كثير ، وربما جُلُّه عليه لا له ؛ وهذه مصيبة وكرثة .. أحياناً يُفاجئ الإنسان الذي يحمل الجوال أن فاتورة الجوال مليئة بالمبلغ ؛ ثم يستغرب ويقول : أنا تكلمت بالجوال هذا الكلام وهذه الساعات !!؟

فهو عرفها لما ضبطت عليه ؛ في الوقت الفلاني نصف ساعة .. فيُفاجأ ويدهش .. وإذا كان الإنسان طلق اللسان بالكلام وكثير الكلام ويتكلم دائماً بغير ضابط وبدون قيد ؛ فهذه كارثة وسيُفاجئ يوماً من الأيام أن موازين أعماله مبسوط فيها أقوال وكلام كثير عليه لا له ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

[ثالثاً: الخير اسم يقابله الشر ويأتي أيضاً خير أفعال تفضيل حُذفت منه الهمزة ، وقد جاء الجمع بينهما في قول الله عز وجل ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾] .

الشرح ..

الخير في قوله عليه الصلاة والسلام " فليقل خيراً " ؛ الخير هنا هي اسم مقابل للشر أو ضد الشر ، وهذه الكلمة تأتي مرة يراد بها ما يقابل الشر ، وثارة تأتي ويراد بها أفعال التفضيل - فلان خير من فلان - أي أفضل منه .

وقد جاء الجمع بينهما في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ فخيراً الأولى هي ضد الشر، وخيراً الثانية هي أفعال التفضيل.

[رابعاً: قوله " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره " : حق الجار من الحقوق المؤكدة على جاره ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الترغيب في إكرام الجار والترهيب من إيذاءه

والحاق الضرر به ؛ ومنها حديث عائشة رضي الله عنها " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " رواه البخاري ومسلم ، وحديث " والله لا يؤمن والله لا يؤمن قالوا من يا رسول الله ؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه " رواه البخاري ومسلم وإكرامه يكون بأن يصل إليه بره وأن تحصل له السلامة من شره .
والجيران ثلاثة :

جار مسلم ذو قرى له ثلاثة حقوق ؛ حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام .
وجار مسلم ليس بذى قرى له حق الجوار والإسلام .
وجار ليس بمسلم ولا ذى قرى له حق الجوار فقط .
وأولى الجيران بالإحسان من يكون أقربهم باباً لمشاهدته ما يدخل في بيت جاره فيتطلع إلى إحسانه إليه [.

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره " : هذا فيه بيان لحق الجار ، وأن حق الجار من الحقوق المؤكدة في الشريعة الإسلامية ؛ ولهذا جاءت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الترغيب في إكرام الجار والترهيب من إيذائه وإلحاق الضرر والأذى به ؛ منها حديث عائشة " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " وهذا فيه أن الوصية بالجار كانت متكررة وعظيمة حتى ظن النبي صلى الله عليه وسلم أن الجار سيكون له نصيب من الميراث من كثرة ما يأتيه جبريل عليه السلام بالوصية بالجار .

وقال عليه الصلاة والسلام " والله لا يؤمن والله لا يؤمن " يقسم بالله ويكرر ذلك مرتين ؛ قالوا من يا رسول الله ؟ قال " الذي لا يأمن جاره بوائقه " ؛ أي أن جاره دائماً قلق منه ومتخوف من أذاه وعدوانه ، ولا يحس بارتياح ولا بسلامة من جهته ولا من طرفه .

ونفي الإيمان يدل على أن الأمر المذكور في الحديث من واجبات الدين ، وأن الواجب على الجار أن لا يؤذي جاره وأنه إذا آذى جاره نقص إيمانه الواجب لأذيته لجاره ؛ فهذا دليل على أن هذا الأمر من الكبائر .

وإكرام الجار . المطلوب في الحديث . هو إكرام أطلق ولم يُقيد بشيء ؛ فيتناول كل إكرام قولي أو فعلي ، ويكون متعاملاً مع جاره بالبر والرفق واللفظ والإحسان ، وبما تعنيه هذه الكلمة من معنى .

ولو قال قائل أريد ضابطاً في هذا الباب ؛ فالضابط في قوله صلى الله عليه وسلم " أن تأتي للناس الذي تحب أن يؤتى إليك " فماذا تحب أن يعاملك به جارك عامله به ؛ فإن كان أمراً لا ترضاه لنفسك فكذلك لا ترضاه لجارك ؛ لأن هذا هو حقيقة البر والإكرام والإحسان إلى الجار .

" وأن تحصل له السلامة من شره " .. إن لم تحصل السلامة وحصل الأذى كان الجار مرتكباً كبيراً في حق جاره وأمراً عظيماً ، نفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان الواجب عن من فعل ذلك .

والجيران ثلاثة : وهذا جاء فيه حديث يرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام وفيه كلام لكن من حيث المعنى صحيح ، وشواهد الشريعة ودلائلها على ذلك عديدة .

وأولى الجيران بالإحسان من يكون أقربهم باباً لما ثبت في صحيح البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله إن لي جارين فبأيهما أبدأ . أو أيهما أهدي . فقال عليه الصلاة والسلام " إلى أقربهما منك باباً " ؛ فإذا كان عند الإنسان كرامة أو ضيافة أو شيئاً يريد أن يهديه إلى جاره ، والشيء الذي عنده واحد ، وتخير إلى أي الجيران يبدأ ؛ قال : إلى أقربهم باباً ؛ فيعطي الأقرب لأنه الأولى بالصلة والإحسان ولأنه قريب من الباب ، وإذا أحضر الإنسان إلى بيته شيئاً جديداً ربما تقع عليه عين صغار الجيران أو الأولاد أو نحو ذلك . والنبي عليه الصلاة والسلام وجه في هذا الحديث إلى أن يهدي الأقرب باباً ، فإذا كان الشيء يكفي دارين فيعطى البابين الأقرب ، وهكذا يمضي في إحسانه .

ويحاول في الإحسان إلى الجيران وإكرام الجيران ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

[خامساً : قوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " : إكرام الضيف من الحقوق التي للمسلمين على المسلمين ، وهو من مكارم الأخلاق ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي شريح قال سمعت أذناي وأبصرت أذناي حينما تكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قيل وما جائزته يا رسول الله قال يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام وما وراء ذلك فهو صدقة عليه "] .

الشرح..

إكرام الضيف من الحقوق التي جاءت به الشريعة وأمر بها الإسلام .

قوله " فليكرم " اللام للأمر ؛ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك . فالضيف له كرامته وله ضيافته وله قراه وله حسن الضيافة وحسن المعاملة وحسن الاستقبال .

وقوله " فليكرم " : يتناول كل معاني الإكرام القولية والفعلية.

الإكرام القولي بحسن الكلام وإلانة القول وجمال الترحيب وتنوع عبارات الاستقبال ، وكان من هديه عليه الصلاة والسلام الترحيب بالقادم ؛ فكثيراً ما يأتي عنه عليه الصلاة والسلام "مرحباً"

فالترحيب بالقادم وحسن الكلام معه . مرحباً ، أهلاً وسهلاً ، حللت بين إخوانك ، أنت بين أهلك - إسماعه مثل هذه الكلمات اللطيفة الطيبة تدخل السرور على قلبه والأنس على نفسه ؛ فهذا من إكرامه أن يكرم بالقول والكلام الحسن الطيب فمجرد الترحيب يكون أكرمه ، ولهذا من لم يتيسر له الإكرام بكل معانيه ودلالاته لا يفوت جوانب منه ؛ يرحب بالقادم بقوله أنت في بلدك، أنت بين إخوانك ، أهلاً ومرحباً بك ، سرّنا لقاءك نحمد الله على صحتك وعافيتك .. إلى غير ذلك من الكلام الذي يدخل السرور في قلبه ويفرح به ويحس بأن أخاه يحس به ويشعر به ؛ فهذا من الضيافة ، ليست الضيافة بمجرد الإطعام والكلام الطيب بل الضيافة أيضاً بالكلم الطيب وحسن الاستقبال وأيضاً كما يكون بضيافة الإنسان بحسن قراه مبيتاً وطعاماً وتفقداً لحاجته ومصالحه أو غير ذلك ؛ فهذا كله من الأمور التي جاءت بها الشريعة وحث عليها الإسلام وهو من محاسن الدين الإسلامي وجمال هذه الشريعة ، ولا يمكن ترى في الأديان أيّاً كانت مثل هذه الآداب القويمة والأخلاق العالية الرفيعة التي تدل على جمال هذا الدين وكماله وحسنه ، ومر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام " من حسن إسلام المرء " ؛ فالإسلام مليء بالمحاسن ، وكله جمال وكمال ، وهو دين الله سبحانه وتعالى ، وهو يحقق للناس الخير وحسن العائدة في الدنيا والآخرة .

وقد جاء عن أبي شريح رضي الله عنه قال : "سَمِعْتُ أُذُنَايَ وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ" ، وهذا قاله تأكيداً وتثبيتاً ؛ قال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قيل وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يومٌ وليلة " ؛ وهذا فيه أن الليلة الأولى واليوم الأول في الضيافة فيها من التأكيد والخصوصية ما ليس في الأيام الأخر ؛ لأن اليوم الأول والليلة الأولى جائزة الضيف ، وثلاثة أيام ضيافة ، وما زاد على ذلك صدقة ؛ فلاحظ التدرج :

اليوم الأول جائزة الضيف ؛ وفيه من الخصوصية ما ليس في غيره .

وثلاثة أيام ضيافة - بما فيها اليوم الأول - ؛ هذه أيام ضيافة .

وما زاد على ذلك فهو صدقة ؛ يعني انتهى الحق .
وهذه الضيافة الواجبة نصّ غير واحد من أهل العلم أن الوجوب وتعيُّن هذا الأمر إنما هو في القرى والمناطق التي ليس بها أماكن يستأجرها الضيف أو أماكن يشتري منها لينام وليطعم .
وقد يكون واجباً إذا كان هذا الضيف ليس عنده قدرة على السكنى أو الأجار ؛ فإن لم يُضَيَّف فسيكون في العراء وسيكون بدون طعام .

[سادساً: مما يُستفاد من الحديث :

- الأول : الترغيب في الكلام فيما هو خير .
- ثانياً : الترغيب في الصمت إذا لم يكن التكلم بخير .
- ثالثاً : التذكير عند الترهيب والترغيب باليوم الآخر لأن فيه الحساب على الأعمال .
- رابعاً : الترغيب في إكرام الجار والتحذير من إيذائه .
- خامساً : الحث على إكرام الضيف والإحسان إليه .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*